الهادي

إلى

رياض الفقه والفقهاء

تأليف

بنت المفتي مجيب الرحمن الديروي

على ضوء

ما أفاده الشيخ الوالد

راجعه

المفتي فضل ودود الشاهوري

من منشورات

مكتبة الإمام أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني

تيمركره باكستان

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة الإمام أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني
فلا يسمح بطبع أو نشر أو تصوير أو ترجمة إلى أية لغة أخرى

بسم الله الرحمن الرحيم

خطة العمل في التعليق والتهميش

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهجت في التهميش منهجا معينا يتمثل في النقاط التالية:

١) قمت بعزو الآيات الكريمة إلى سورها مبيِّنة أرقامها.

٢) خرّجت الأحاديث والآثار الواردة في الكتاب من مصادرها، بذكر رقم الحديث أو الأثر فحسب، دون أن أتعرض لذكر الجزء والصفحة أو الباب. أخرّجه من صحيحي إمامي المحدثين -رحمهما الله-، أو من أحدهما، أو من أسفار السنة المعتمدة.

٣) وثّقت النقول عن العلماء والسلف الصالح بعزوها لمصادرها الأصلية، ولم أُلجأ للعزو بالواسطة؛ لتوفر المصادر -والحمد لله-، إلا في مواضع معدودة، وحذفت الواسطة؛ ثقة بها واختصارا.

ومنهجي في ذلك: أن عند إحالة نقل إلى مصدره أذكر اسم المصدر، مع ذكر الكتاب والباب أو القسم، وما فيه من العنوان إن كان، دون أن أتعرض لذكر الجزء أو الصفحة، أو معلومات عن الطبع والمحقق والبلدة الناشرة والدار الناشرة -كما هو المنهج الحديث للبحث والتحقيق-؛ تسهيلا على القارئين وتوفيرا للفائدة عليهم؛ فإن كثيرا ما يختلف ترقيم أجزاء طبعة وصفحاتها عن طبعة أخرى، ولا تتيسّر لكل أحد الطبعة التي أحيل عليها. وكذلك لم أذكر اسم المؤلف إلا عند ورود المصدر لأول مرة.

٤) تركت توثيق النقول في بعض الفصول، واكتفيت بإيراد أسماء المصادر في أواخر تلك الفصول، وذلك لأنها من جنس واحد تتصل بعضها ببعض في المصادر المأخوذ منها، ففي توثيق كل نقل وعزوه إلى مصدره مما يؤدي إلى نصب القارئ وضياع وقته الثمين، ويفضي إلى تضخيم زائد في وزن الكتاب ووزن عوضه.

٥) ترجمت لأغلب الأعلام الذين جاء ذكرهم في ثنايا الكتاب، باستثناء الأنبياء -صلوات

الله عليهم- والصحابة -رضوان الله عليهم-.

وذلك عند ورود العلم لأول مرة إلا في ما ندر، قصدا أو سهوا. واهتممت بأن آخذ ترجمة كل علم من مصادره المختصة به في كتب التاريخ والرجال والطبقات. وغالبا ما تكون الترجمة في سطرين أو ثلاثة، أضمّنها ما يلي:

أ- لقب العلم وكنيته.

ب- اسمه الثنائي أو الثلاثي.

ج- نسبته وضبطها بالحروف والحركات.

د- تخصصه.

هـ- مذهبه.

و- شيخ أو شيخان من شيوخه.

ز- فضله.

ح- كتاب من تأليفه.

ط- تاريخ وفاته.

هذا، وربما زدت أو نقصت حسبما اقتضاه المقام.

ثم عند الإحالة على المصدر أذكر اسم المصدر، فإن كان على ترتيب حروف التهجي لم أذكر بعده شيئا، وإن كان على ترتيب السنين والوفيات أو على ترتيب الطبقات ذكرت بعده رقم الترجمة بجَلْ.

واستثنيت الأنبياء -صلى الله تعالى عليهم- وكذلك الأصحاب -رضي الله تعالى عنهم-، أما الأنبياء -صلوات الله عليهم- فكيف يعرّف بهم ومعرفتهم من الإيمان؟ وكيف يعرّف بهم وقد عَرَفَتْهم السموات والأرضون، والإنس والجن، والشجر والحجر، والمدر والطيور، واللوح والقلم، والحل والحرم؟ وكيف يعرّف بهم والأقلام عاجزة عن التعريف بهم؟

فحسبنا أن نصلي عليهم عند ورود أسمائهم العطرة -اللّهُمَّ صل على سيدنا محمد، وعلى سائر الأنبياء، وعلى آلهم وأصحابهم وأتباعهم أجمعين-.

وأما الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- فلأن المسلم لا يجهل على الأقل اسم الصحابي وكنيته ....

علا أن نفسي لا تسمح بأن أعرف بصحابي نبينا -صلى الله عليه وسلم- في سطرين أو ثلاثة أو في صفحات، وإذاً لا تقنع نفسي ولا يغادرني قلمي إلا أن أذكر سيرته العطرة عن آخرها -زادنا الله تعالى حبا لهم وبغضا لباغضيهم-.

٦) رمزت لـ"راجع" أو "انظر": "ر"، ولـ"توفي" أو "المتوفى": "ت"؛ روما للاختصار.

٧) ذيّلت الكتاب بإيراد قائمة المصادر والمراجع التي اقتبسنا منها في صلب الكتاب أو في الهامش. فذكرت اسم المصدر كاملا، ثم اسم مؤلفه تماما مع تاريخ وفاته.

٨) زيّنت التحقيق ببعض الفوائد والإيضاحات التي منّ الله تعالى بها علي أثناء التحقيق.

هذا مجمل منهجي، والله تعالى أسأل التوفيق والسداد.

بنت مجيب الرحمن الديروي

١٤٣٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شرع لنا من الدين ما وصى به الأنبياء، وجعل ورثتهم الفقهاء، الذين كأنهم من الفقه أنبياء، وأهَّلهم لخشيته فقال -عز من قائل-: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].

ورد أمر عباده في ما نزل بهم إلى المستنبطين منهم أهل الآراء، وأمرنا بالاقتداء بهم وهم أهل الرشد والاهتداء.

والصلاة والسلام على محمد قطب دائرة الاصطفاء، وحقيقة حقائق النبوة والاجتباء.

وعلى آله وصحبه الذين هم في الأرض كالنجوم في السماء[2]، وعلى من سلك طريقتهم الغرآء، صلاة وسلاما دائمين إلى أبد الآباد من غير انتهاء.

وبعد:....

فهذا ما جمعت من إفادات والدي وشيخي مجيب الرحمن بن السيد ولي الله الديروي -جزاه الله تعالى خير ما جزى والدا عن ولده وشيخا عن تلميذه، وجعلني ممن يترسمون خطاه، وينسجون على منواله- ما يتعلق بالفقه والفقهاء، التي هي كالمقدمة لكتب الفقه عموما، ولكتاب "الهداية" للشيخ الإمام الأجل الزاهد برهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني -رضي الله عنه- خصوصا. والتي بها يصير المتفقه على بصيرة في مجال الفقه والتفقه.

بعد أن أمر ونهى[3]، ونصب لي في التأليف معالم أقف عندها، وحدَّ حدودا لا أتجاوزها، وقد أضفتُ إلى ذلك بعض إضافات تتصل به وتنخرط في سلكه، ثم عرضتها على الشيخ الوالد فقررها.

وجعلته على عشرة فصول مسبوقة بتمهيد، ومتلوة بخاتمة، وضمّنت التمهيد والفصول

١- الفاطر: ٨٢.

٢- أي يهتدى بهم كما يهتدى بالنجوم، قال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦). وقال -صلى الله عليه وسلم-: «أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم» (أورده في المشكاة برواية رزين، برقم: ٦٠١٨) وفي رواية أخرى: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون» أخرجها مسلم برقم: ٦٤٦١.

٣- ومن معظم ما نهى عنه: التكلف في العبارة والصناعة.

مباحث، وقد تنبثق عن المباحث مطالب.

ووسمتُه بـ"الهادي إلى رياض الفقه والفقهاء" -جعله الله تعالى اسما يوافق مسماه، ولفظا يطابق معناه-.

وجعلته تحفة مني مهدية إلى الشيخ الوالد متمثلة بقول القائل:

لا تُنكِرَنّ إذا أهديتُ نحوك منْ ... علومك الغُرّ أو آدابك الـنُتَفَا

فقيِّم الباغ قـد يُهدي لـمالكه ... بِرسم خدمته من باغه التُحَفَا

وقول الآخر:

لا تُنْكِرَنْ إهدائَنا لـك منطقا ... منك استفدنا حسنَه ونِظَامَه

فالله عز وجلّ يشكر فعل من ... يَتْلـو عـليه وَحْـيَه وكـتابَـه

علا أني بذلك لم أجازه معشار حقه.

هذا، وإن وقع مني تقصير في بعض الترتيب، أو شيء من حقوق التركيب فلما أن البشر محل الخطأ والنسيان، ولذلك سمي بإنسان[1]، وهما بالنص عنه موضوعان[2]، والجنان لا يساعد البنان في كل زمان، والبنان لا يوافق الجنان في كل بيان، ولا يخلو شيء من "لكن"، فقد قيل:

ما خطَّ كفُّ امرئ شيئا وراجعه ... إلا وعَـنَّ لـه تـبـديل مـا فيه

وقـال ذاك كـذا أولى وذاك كـذا ... وإن يكـنْ هكذا تسمو معانيه

والمأمول ممن ينظر فيه أن يصلح ما يحتاج إلى الإصلاح؛ أداء لحق الأخوة بالنصح والانتصاح.

الله ربي أسأل أن يجعله لي ولأبي من الثلاث التي ينقطع عمل ابن آدم إذا مات إلا منها، وأن يوفقني وإياه لخدمة دينه القويم إلى أن يأتينا الموت ونحن على ذلك، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

١- في قول بعض أهل اللغة.

٢- فقال -صلى الله عليه وسلم-: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان» أخرجه ابن ماجة برقم: ٢٠٤٥.

التمهيد

وهو يتكون من عديد من المباحث:

المبحث الأول

في فضل العلم والتعلم والتعليم

فضل العلم لم يزل أمرا بديهيا، ما افتقر إلى دليل وبرهان، في كل عصر وزمان، فمن الذي لا يعلم فضل العلم وأهله؟

كيف وهو صفة الكبير المتعال، ومع ذلك قد تكاثرت الآيات والأخبار والآثار، وتواترت في شأن هذا الشأن وأهله، ونحن نذكر منها طرفا استحضارا وإحضارا، وتذكرا وتذكيرا.

اعلم أن فضل العلم لعظيم، وأن شرفه لعال رفيع، فكم من وضيع رفعه الله تعالى بالعلم إلى مصافّ الشرفاء، وكم من حقير نظمه العلم في سلك العلماء، به شرف آدم في الملأ الأعلى، وبه فاز أهله بالدرجات العلى.

فقد قال الله -عز من قائل-: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾[1].

وقال -جل وعلا-: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِيْ عِلْماً﴾[2].

وقال -عز وجل -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[3].

وقال -سبحانه وتعالى شانه-: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4].

١- آل عمران : ١٨.

٢- طـه: ١١٤.

٣- الفاطر: ٢٨.

٤- الزمر: ٩.

وقال -جل جلاله-: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[١].

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «من سلك طريقا يبتغي فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم[٢]، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر»[٣].

وروي عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مر بمجلسين في مسجده فقال: «كلاهما على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه. أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم ويعلِّمون الجاهل، فهم أفضل، وإنما بعثت معلما» قال: ثم جلس فيهم[٤].

ومن الآثار: قال علي -رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه-: "كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل عيبا أن يتبرأ منه من هو فيه، ويغضب إذا نسب إليه"[٥].

○ عن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- قال: "لأن أذكر الفقه ساعة أحب إلي من قيام

١- المجادلة: ١١.

٢- قال النجم الغزي -رحمه الله-: "قد ألهمني الله تعالى في وضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم، أن الملائكة رأت لطالب العلم والعالم عليها حقين، الأول: أنه ولد أستاذها ومعلمها -أعني آدم عليه السلام-، الثاني: أنه أراد الاقتداء بأبيه ومشابهته في التعلم والتعليم، فلذلك خصته بوضع الأجنحة له تواضعا زيادة على ما هي عليه من المودة والشفقة على سائر المؤمنين من بني آدم، كما تواضعت لأبيه بالسجود. وهذا من لطائف العلم". آهـ(حسن التنبه لما ورد في التشبه، باب التشبيه بالملائكة، تشبيه رقم: ٨٥) قلت: وهذا من لطائف ما منَّ الله تعالى به على الغزي -رحمه الله-.

٣- أخرجه الترمذي برقم: ٢٦٨٢، وأبو داود برقم: ٣٦٤١، وابن ماجة برقم: ٢٢٣.

٤- رواه الدارمي برقم: ٣٥٣.

٥- ربيع الأبرار وفصوص الأخبار للزمخشري: باب العلم والحكمة والأدب.

ليلة"[١].

○ ذكر في الخبر أن أهل البصرة اختلفوا، فقال بعضهم: العلم أفضل من المال، وقال بعضهم: المال أفضل من العلم. فبعثوا رسولا إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، فقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: العلم أفضل. فقال الرسول: إن سألوني عن الحجة ماذا أقول لهم؟ قال: "قل لهم: إن العلم ميراث الأنبياء، والمال ميراث الفراعنة، ولأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، ولأن العلم لا يعطيه الله إلا من يحبه، والمال يعطيه الله من أحبه ومن لا يحبه، بل يعطي من لا يحبه أكثر، ألا ترى إلى قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ الآية[٢]، ولأن العلم لا ينقص بالبذل والنفقة، والمال ينقص بالبذل والنفقة، ولأن صاحب المال إذا مات انقطع ذكره، وصاحب العلم إذا مات فذكره باق، ولأن صاحب المال ميت وصاحب العلم لا يموت، ولأن صاحب المال يُسأل عن كل درهم من أين اكتسبه؟ وأين أنفقه؟ وصاحب العلم له بكل حديث درجة"[٣].

○ أبو مسلم الخولاني[٤]: "العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء، إذا بدت للناس اهتدوا بها، وإذا خفيت عليهم تحيروا"[٥].

○ سهل بن عبد الله التُستري[٦]: "من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء،

١- أخرجه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" برقم: ٥٥.

٢- الزخرف:٣٣.

٣- تنبيه الغافلين للفقيه أبي الليث السمرقندي: باب فضل طلب العلم.

٤- هو أبو مسلم عبد الله بن ثُوَب الخولاني، فقيه زاهد تابعي جليل، أصله من اليمن، أسلم قبل وفات النبي -صلى الله عليه وسلم-. (ت: ٦٠أو ٦٢هـ) ر: حلية الأولياء وتذكرة الحفاظ.

٥- مقدمة المجموع شرح المهذب للنووي.

٦- هو أبو محمد الإمام المشهور المتكلم في علوم الإخلاص والرياضيات، جمع بين العلم والزهد، قيل: كان لا يأكل الطعام إلا في كل خمسة عشر يوما، صحب ذا النون المصري، له تفسير القرآن. (ت: ٢٨٣هـ) ر: المختار لابن الأثير وطبقات الصوفية.

فهم خلفاء الرسل في أممهم، ووارثوهم في علمهم، فمجالسهم مجالس خلافة النبوة"[١].

○ الحسن البصري -رحمه الله-[٢]: "موت العالم ثلمة في الإسلام، لا يسدها شيء ما اختلفت الليالي والأيام"[٣].

○ عنه أيضا: "لو لا العلماء لكانت الناس كالبهائم".

○ النووي في مقدمة "المجموع": "إنهم متفقون على أن الاشتغال بالعلم أفضل من الاشتغالات بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن، ومن دلائله سوى ما سبق: أن نفع العلم يعم صاحبه والمسلمين، والنوافل المذكورة مختصة به، ولأن العلم مصحّح، فغيره من العبادات مفتقر إليه ولا ينعكس، ولأن العلماء ورثة الأنبياء ولا يوصف المتعبدون بذلك، ولأن العابد تابع للعالم مقتد به مقلد له في عبادته وغيرها واجب عليه طاعته ولا ينعكس، ولأن العلم تبقى فائدته وأثره بعد صاحبه والنوافل تنقطع بموت صاحبها[٤] ،ولأن العلم صفة الله -تعالى شأنه-، ولأن العلم فرض كفاية -أعني العلم الذي كلا منا فيه- فكان أفضل من النافلة". آهـ

ومن عيون ما أنشدوه في فضل العلم قول أبي الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي[٥]:

العلم كنز وذخر لا نفاد له ... نعم القرين إذا ما صاحب صُحِبا

قد يجمع المرء مالا ثم يُحرَمُه ... عما قليل فيلقى الذل والحربا

١- الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي: أثر رقم: ١٣٦.

٢- هو الحسن بن يسار أبو سعيد مولى زيد بن ثابت، تابعي إمام أهل البصرة، كان رأسا في العلم والحديث والزهد، إماما مجتهدا صاحب مذهب، روى له الجماعة. (ت: ١١٠هـ)

٣- تنبيه الغافلين: باب فضل مجالس أهل العلم.

٤- قلت: المعنى فيه أن ما كان أعم خيرا ونفعا أفضل من الخير القاصر على المرء نفسه. قال الإمام السرخسي -رضي الله عنه- في كتاب الكسب: "ما كان أعم نفعا فهو أفضل؛ لقوله -عليه السلام-: «خير الناس من ينفع الناس» ولهذا كان الاشتغال بطلب العلم أفضل من التفرغ للعبادة؛ لأن منفعة ذلك أعم". آهـ

٥- هو ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي الكناني، تابعي واضع علم النحو، كان معدودا من الفقهاء والأعيان والشعراء. (ت: ٦٩هـ) ر: وفيات الأعيان وخزانة الأدب.

وجامع العلم مغبوط به أبدا ولا يحاذر منه الفوت والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه لا تعدلن به درا ولا ذهبا[١]

وقال آخر:

إن الملوك ليحكمون على الورى وعلى الملوك لتحكم العلماء[٢]

وقال آخر:

العلم ينهض بالخسيس إلى العلى والجهل يقعد بالفتى المنسوب[٣]

حقيقة العلم الذي هو منبع هذه الخيرات:

لتعلم أن ما ذكر من فضائل العلم إنما تناط بالعلم الذي جاء من الله العليم الخبير إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- من علوم الكتاب، وعلوم السنة، وما استنبط منهما.

وكذلك العلوم التي هي ذرائع موصلة إلى معرفة تلك العلوم من علم النحو، والاشتقاق، والمعاني وغير ذلك مقصودة لتلك العلوم، فتدخل فيها فضلا وأجرا وطلبا.

وأما ما عدا ذلك من الفنون فهي صناعات وحرف، وذرائع اكتساب المال، لا صلة لها بتلك الفضائل العالية وإن كانت مطلوبة في نفسها للحاجة والضرورة، لا سيما إذا حسنت نية الكاسب، فإن «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»[٤].

١- الأبيات أوردها الخطيب في "الفقيه والمتفقه" برقم: ١٨٢.

٢- لم أهتد لقائله.

٣- البيت أورده في "المجالسة وجواهر العلم" من إنشاد الصلت بن مسعود، جوهرة رقم: ٢٥٦٣.

٤- أخرجه الترمذي حديث رقم: ١٢٠٩، وابن ماجة: ٢١٣٩، واللفظ للترمذي.

المبحث الثاني

في وجوب تعظيم أهل العلم والتحذير من تحقيرهم وإيذائهم

قال الله -عز من قائل-: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[١] وقال -جل وعلا-: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[٢].

وفي "صحيح" الإمام محمد البخاري -رحمه الله- عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب»[٣][٤].

ذكر شارح الحديث النووي في كتاب "التبيان في آداب حملة القرآن": "قال الإمامان الجليلان: أبو حنيفة والشافعي -رضي الله عنهما-: "إن لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي".

١- الحج: ٣٢.

٢- الحج: ٣٠.

٣- أخرجه البخاري برقم:٦١٣٧.

٤- الحكمة في إخفاء الولي:

الحكمة في إخفاء الله -عز وجل- وليَّه من بين الناس -وإن كان المؤمنون كلهم أولياء الرحمن والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى- على ما ذكره صاحب "الانتصار للأولياء الأخيار" الشيخ يوسف الموصلي نقلاً عن الشيخ أحمد الأعرج: "ليعظموا الكل كما أخفى الله تعالى الاسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء، والصلاة الوسطى ليحافظوا على كل صلاة، وساعة الإجابة في الجمعة ليداوموا على الدعاء في كل الجمعة، وليلة القدر ليحيي من يريدها ليالي كثيرة، ورضاه في الطاعة ليرغبوا في الكل، وغضبه في المعاصي ليتجردوا عن الكل، ووقت الموت ليكون المكلف على احتياط في جميع الأوقات". آهـ

قلت: وشيء أخر حسن ظفرت به في كتب السادة الصوفية -سلك الله تعالى بنا طريقهم- وهو أن الأولياء لو كانوا ظاهرين موسومين بسيماء يعرفون به، وقصد إيذاءه أحد لكان قد بارز الحق تعالى بالمحاربة فأهلكه الله تعالى، فكان في إخفائهم شفقة على الخلق، فإياك إياك أن تحقر مسلما من أية طبقة كان فيحيق بك تحقيرك إياه فتردى.

قلت: وأما العلماء العاملون بعلمهم هم أولياء الله تعالى حقا -كما نطق بذلك الإمامان الجليلان رضي الله عنهما- ونقله عنهما كذلك النجم الغزي في كتابه "منبر التوحيد"، ولعل ذلك لأن العلماء خلفاء الرسول -صلى الله عليه وسلم- وورثته، وهو -صلى الله عليه وسلم- صاحب الولاية العظمى فتكون الولاية لخلفائه أيضا وإن كان العلماء فيها على درجات. والله تعالى أعلم.

ونقل صاحب "بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من الأحكام" عن مالك بن دينار[١] قال: "من آذى طالب العلم لعنتْه الملائكة، ويَلقى الله تعالى يوم القيامة وهو عليه غضبان، ومن أعانه ولو بدرهم بشرته الملائكة عند قبض روحه بالجنة، وفتح الله له بابا من النور". آهـ

وذلك لأن العالم والمتعلم من شعائر الدين، وتعظيمها يوجب رضاء الله تعالى، فتحقيرها يوجب سخطه -جل وعلا-. وقال مالك -رحمه الله-: "عليكم بمعرفة حق أهل العلم والتماس برهم، وواجب عليكم أن لا تمروا بقرية فيها عالم إلا أتيتموها فتسألون عنه وتنالون منه".

وقال الإمام أبو القاسم ابن عساكر -رحمه الله-[٢]: "اعلم يا أخي -وفقني الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه- أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله تعالى في هتك أستار منتقصيهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلْب[٣] ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾"[٤][٥].

وفي "الانتصار للأولياء الأخيار" عن الشيخ أبي عبد الله القرشي -رحمه الله- قال: "من بغض وليا لله تعالى ضُرِب في قلبه بسهم مسموم، ولم يمت حتى تفسد عقيدته، ويخاف عليه من سوء الخاتمة"[٦]. آهـ

ولقد تكررت من الواقعات ما يصدق هذا في مختلف الأعصار، فنسأل الله تعالى أن يصوننا من الطعن والقدح في العلماء الأولياء.

١- أبو يحي البصري من أعيان رواة الحديث، جمع بين العلم والعمل والورع، توفي بالبصرة سنة: ١٣١هـ، ر: المختار من مناقب الأخيار، وتهذيب التهذيب.

٢- هو علي بن أبي محمد بن هبة الله، المعروف بابن عساكر الدمشقي الشافعي الملقب بـ"ثقة الدين"، محدث، فقيه، رحالة، مؤرخ، صاحب التصانيف الجمة، منها: تاريخ دمشق الكبير، وبه اشتهر. (ت: ٥٧١هـ) ر: شذرات الذهب، وطبقات الشافعية.

٣- بفتح الثاء المثلثة وإسكان اللام: العيب.

٤- النور: ٦٣.

٥- التبيان في آداب حملة القرآن للنووي: الباب الثالث في إكرام أهل القرآن.

٦- الانتصار: الباب الرابع.

المبحث الثالث

في الإخلاص لله تعالى في طلب العلم والحث على العمل به والتحذير من طلبه لغرض الدنيا

اعلم أن جميع ما ذكرنا من فضل العلم والعلماء إنما هو في حق العلماء العاملين، الأبرار المتقين، الذين قصدوا وجه الله الكريم، والزلفى لديه في جنات النعيم. دون من طلبه بسوء نية وخبث طوية، أو لأغراض دنيوية أخرى من مال أو جاه، أو مكاثرة أو مفاخرة في الأتباع والأصحاب.

ولما كان العلم أفضل الأعمال بعد الإيمان[١] كان طلبه لغير الله تعالى من أكبر الذنوب والمعاصي بعد الكفر بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوْا الْكِتَابَ يَأْخُذُون عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُوْلُوْنَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[٣] وقال تعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[٤] وقال -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٥].

وقد روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى،

١- ولأجل هذا أورد أكثر المصنفين كتاب العلم بعد كتاب الإيمان، وذلك لأن الغاية من خلق الإنس والجن إنما هي العبادة لله تعالى، وهي لاتستتب بدون العلم.

٢- البينة: ٥.

٣- الأعراف: ١٦٩.

٤- الأعراف: ١٧٥، ونزلت الآية في بلعم بن باعور من بني إسرائيل، آتاه الله تعالى اسمه الأعظم والدعوات المستجابة والعلم والحكمة، فاستحب السكون إلى الدنيا ولذاتها واتباع الهوى والشيطان، فاستوجب من الله تعالى تغيير النعم بالانسلاخ عنها. قاله المفسرون.

٥- الصف: ٢-٣.

فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[١].

ـ وقال -صلى الله عليه وسلم- في حديث طويل: «ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ..... »[٢].

ـ عنه -صلى الله عليه وسلم-: « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه[٣] في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: يا فلان ما شأنك؟ ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[٤].

ـ عنه-صلى الله عليه وسلم-: «من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار»[٥]

ـ ذكر في الإحياء عن عيسى -صلوات الله عليه- أنه قال: «مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر فحملت، فظهر حملها فافتضحت، فكذلك من لا يعمل بعلمه

١- أخرجه البخاري برقم: ١، ومسلم برقم: ٤٩٠٤. فالهجرة على حد واحد في الفعل وإنما كانت هذه لله تعالى وهذه لغير الله تعالى على ما انطوت عليه الجوارح الباطنة وهي النية، فقال الإمام مالك: "ألا ترى أن الساجد لله تعالى، والساجد للصنم في صورة واحدة، وإنما كانت هذه عبادة وهذه كفرا بالنية". انتهى (المدخل) ولهذا شرطت النية في العبادات والقربات.

٢- أخرجه مسلم برقم: ٤٩٢٣.

٣- قال الحافظ المنذري في "الترغيب والترهيب": "الأقتاب: الأمعاء، واحده قِتب، بكسر القاف وسكون التاء. تندلق: أي تخرج".

٤- أخرجه البخاري برقم: ٣٢٦٧. ومسلم برقم: ٧٤٠٨-٤٧٠٩.

٥- أخرجه الترمذي برقم: ٢٦٥٤، وابن ماجة برقم:٢٥٣.

يفضحه الله تعالى يوم القيامة»[١].

ـ عن عيسى -عليه السلام- أيضا: «ما ذا يغني عن الأعمى حمل السراج ويستغني به غيره، وما ذا يغني عن البيت المظلم أن يكون السراج على ظهره، وما ذا يغني عنكم أن تتكلموا بالحكمة ولم تعملوا بها»[٢].

ـ نقل أبو طالب المكي في "قوت القلوب": "أن رجلا كان يخدم موسى -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- فجعل يقول: حدثني موسى صفي الله، حدثني موسى نجي الله، حدثني موسى كليم الله، حتى أثرى وكثر ماله، ففقده موسى فجعل يسأل عنه فلا يحس له أثراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير، وفي عنقه حبل أسود، فقال له موسى -عليه السلام-: أتعرف فلاناً؟ قال الرجل: نعم هو ذا الخنزير،[٣] فقال موسى -عليه السلام-: يا رب أسألك أن ترده إلى حاله حتى أسأله بم أصابه هذا، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى! لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه ولكني أخبرك لم صنعت هذا به، لأنه كان يطلب الدنيا بالدين"[٤].

قال مالك -رضي الله عنه- في "المستخرجة من الأسمعة": "إنما الناس في العلم أربعة: فرجل علم علما فعمل به وعلّمه، فمثله في كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٥]، ورجل علم علما فعمل به ولم يعلّمه، فمثله من كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[٦]، ورجل علم علما فعلّمه وأمر به ولم يعمل به، فمثله في كتاب الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٧]، ورجل لم يعلم

١- إحياء علوم الدين للغزالي: كتاب العلم، الباب السادس في أفات العلم.

٢- بستان الفقراء ونزهة القراء، للعماد الكتامي: الباب الثاني، يذكر فيه آفة العلم.

٣- العافية اللّهُمَّ العافية، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى.

٤- قوت القلوب: باب ذكر الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الأخرة.

٥- الفاطر:٢٨.

٦- البقرة: ١٥٨.

٧- البقرة: ٤٣.

علما ولم يعمل به،فمثله في كتاب الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾"[١][٢].

ـــ مالك في "المستخرجة" أيضا: "سأل عبد الله بن سلام كعبَ الأحبار[٣]: مَن أرباب العلم الذين هم أهله؟ قال: هم الذين يعملون بما يعلمون. قال: صدقت. قال: فما نفاه من صدورهم بعد أن علموا؟ قال: الطمع. قال: صدقت"[٤].

ـــ يقال: " أشد الحسرة يوم القيامة ثلاثة: رجل له مملوك صالح يدخل الجنة، ومولاه يدخل النار، ورجل جمع المال ومنع منه حقوق الله تعالى، فيموت فينفق منه ورثته في طاعة الله تعالى، فينجون به، والذي جمعه في النار، ورجل عالم سوء يحدث الناس، ينجو الناس بعلمه، وهو يصير إلى النار"[٥].

ـــ ذكر الطرنياطي في "بلوغ أقصى المرام" قال: قال أبو العباس القلشاني[٦] في شرح "الرسالة" لابن أبي زيد القيرواني -رحمه الله-: "وحيثما ورد تعظيم العلم في كتاب الله تعالى، أو سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فالمراد منه العلم النافع الذي هو مطلوب إليه الخشية، وشاهد الخشية موافقة الأمر، وأما العالم تكون منه الرغبة في الدنيا والتملق لأهلها، وصرف الهمة لاكتسابها، والجمع، والادخار، والمباهاة، والاستكثار، وقصد التصدر والرئاسة، ومغالبة الأقران والمنافسة، وقسوة القلب، والوقوع في ما يسخط الرب، ونسيان الآخرة، فما أبعد مَن هذه صفته من أن يكون من العلماء ورثة الأنبياء، وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كانت

١- الأعراف:١٧٩.

٢- البيان والتحصيل لابن رشد، كتاب الجامع التاسع، والسماع لعيسى بن دينار عن ابن القاسم عن مالك -رضي الله عنهم-.

٣- هو أبو إسحاق كعب بن مانع بن حمير من آل ذي رعين، أدرك زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يره، وأسلم في زمن عمر -رضي الله عنه- روى عن عمر وعائشة وغيرهما، مات بحمص سنة ٣٢هـ. ر: المختار، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الإسلام، ترجمة رقم: ١٧٦.

٤- البيان والتحصيل، كتاب الجامع السابع.

٥- تنبيه الغافلين: باب العمل بالعلم.

٦- هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله القلشاني المالكي القاضي الإمام الفقيه، له شرح على "الرسالة" و"ابن الحاجب". (ت: ٨٦٣هـ)ر: "شجرة النور الزكية".

بها عند موت الموروث[١]، ومثل مَن هذه صفته كالشمعة تضيء على غيرها وتحرق نفسها، فقد جعل الله تعالى العلم الذي علمه من هذا وصفُه حجةً عليه، وستأتي عقوبةً لديه، ولا يغرنك أن يكون به انتفاع للبادي والحاضر، فقد قال -صلى الله عليه وسلم-: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[٢] ومثال من يتعلم العلم لاكتساب الدنيا كمثل من رفع العذرة بملعقة من ياقوت، فما أشرف الوسيلة وما أخس المتوسل إليه!! ومثل من قطع الأوقات في طلب العلم، فمكث أربعين سنة أو خمسين يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل من قطع هذه المدة ليتطهر، ويجدد الطهارة، ولم يصل واحدة، إذا المقصود من العلم العمل، كما أن المقصود من الطهارة الصلاة". انتهى[٣]

ـــ ابن الحاج في "المدخل": "ولا يخفى على ذي بصيرة أن الغالب من ذلك راجع إلى الدنيا صرفا، يقعد أحدنا يتعلم العلم ويبحث فيه، ثم يطلب ما هو معلوم في الوقت: من طلب المناصب به والرئاسات ومحبة الظهور والرفعة به على أبناء جنسه ..... قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٤]، فجعل العلماء في ثاني درجة من ملائكته، وفي ثالث مرتبة منه سبحانه وتعالى -أعني في الشهادة- فانظر إلى هذا المنصب العظيم والسعادة العظيمة كيف وقع ونزل به هذا الناقد[٥] المسكين المتشبه بالعلماء، الدخيل فيهم، تَسمى باسم لم يستحقه فنزل به إلى أسفل سافلين، لكن -العلم والحمد لله- لم ينزل، وإنما نزل نفسه وبخسها حظها ..... و كان سيدي أبو محمد -رحمه الله- إذا ذكر له واحد من علماء وقته ممن ينسب إلى طرف مما ذكر، ويثنى عليه إذ ذاك بفضيلة العلم، يقول: ناقل ناقل، خوفا منه -رحمه الله- على منصب العلم أن ينسب إلى غير أهله، وخوفا من أن يكون ذلك كـذبا أيضا؛ لأن الناقل ليس بعالم في الحقيقة، وإنما هو صانع من الصناع كالخياط

١- لعل الصحيح: عند المورث.

٢- أخرجه البخاري برقم: ٣٠٦٢، ومسلم برقم: ٣٠١.

٣- بلوغ أقصى المرام: الباب الثالث.

٤- آل عمران: ١٨.

٥- لعل الصحيح: هذا الناقل. والله أعلم.

والحداد والقصار، هذا إذا كان نقله على وجهه في الصحة والأمانة، وإلا كان دجالا فيستعاذ منه"[1]. آهـ[2]

فليعتبر بما ذكرناه أرباب الأبصار، وليسلِّموا أحكام الواحد القهار، لعلهم بذلك يهتدون إلى منهج التحقيق، حين يضل غيرهم عن سواء الطريق، ومن الله تعالى التوفيق.

١- المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات: الفصل الأول.

٢- ذكر الغزي في "حسن التنبه" في النهي عن التشبه بالمنافقين عن بعض السلف: "طلب الدنيا بالدف والمزمار أهون من طلبها بعمل الآخرة". آهـ قلت: ورأيت في بعض كتب الشافعية:

فعالم بعلمه لم يعـمـلـن معذب من قبل عابد الوثن

وكل من بغير علم يعمل أعماله مـردودة لا تـقـبـل

وذلك لأن العالم عصى عن علم، وعابد الوثن غير عالم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] لأنهم جحدوا بعد العلم.